ر صيدا

تراجعت حدة التوتر نسبياً في طرابلس مساءً (أ ف ب)

«رميش تبكي»: عبرا ليست وحيدة

أحمد محسن

«رميش تبكي». هذه ليست مجرد «تغريدة» ولا رثاء. إنها صورة داكنة لبلدة مشعة. تداول كثيرون هذه الجملة أمس تعليقاً على استشهاد النقيب في الجيش اللبناني سامر طانيوس. الدمع هو حال البلاد الدامية بلا سبب. أمس عاد سامر إلى رميش كي لا تعود الحرب بأنياب جديدة. في عوكر يعرفون الشهيد الهادئ. أصدقاء الطفولة. الجيران الودودون. لا يعرفون أكثر من البكاء. سيصوبون الورود إلى نعشه في الأيام المقبلة. سيلعنون القاتل ألف مرة. قد يفخر بعضهم بشجاعته، غير أن الألم سيكون طاغياً. ستغرق رميش في ثياب الحداد. لم يقل أحد للناس معنى الأسى، وقد جاء الآن مغطى بعلم لبناني. «رميش تبكي». ويبكي معها «جيش» صامت من اللبنانيين، تقرع الحرب أبوابهم، ولا يفتحون.

العالقون في عبرا ليسوا تفصيلاً. في الواقع، هؤلاء، الذين لا يعرف بعضهم فعلاً، ما الذي يجري، أو من هو أحمد الأسير، هم الذين تذوب أعصابهم رعباً. صورة الأسير، وخطاب الأسير، ليسا تفصيلاً عابراً. لم يعتد اللبنانيّون هذه اللغة حتى في «عز الحرب». هذا قاموس زحف مع الإرهاب حتى سوغه التكاسل. والذي يسوغ «جبهة النصرة» لماذا لا يسوغ الشحن المذهبي؟ هذه ليست «أدبيات» لبنانيّة، حتى في عز الحرب، وأيام «الذبح على الهوية»، و«تذكر ما تنعاد». وفي حديث «بسيط» بين مجموعة شباب في «أشرفيّة بشير»، يتضح جليّاً، انفصال أحزاب «14 آذار» عن قواعدها. القواعد أذكى من أحزابها. وأهل الأشرفيّة أدرى بشعابها. هناك، لم يعد الأسير مجرد مهرج بلحية طويلة يقف على منبر لإصدار «التكفير». الثقافة التي ينهل منها الأسير عصيّة على هؤلاء الشباب، حتى يصل الأمر ببعضهم إلى استعادة شريط الحرب الطويل كما هو، والاستنتاج بأن «الفلسطينيين كانوا عدواً واضحاً بقضيّة واضحة». طبعاً، يعزز الأسير عداء شارع طويل للاجئين أبرياء لا ناقة لهم ولا جمل في ما يحصل. لكن الأسير غير مفهوم بالنسبة إليهم. معقد سيكولوجياً وحتى شكلياً. وبمعزل عن مغالطات ما يقوله الشاب عن الفلسطينيين والسوريين، إلا أنه يفسر الشعور بالخطر «الوجودي». هذا الشاب ليس متحزباً، وإن كان «بشيريّاً». وعلى هذا القياس، يصبح صعباً عليه أن يتقبل «دعوات الانقسام عن الجيش في هذه الظروف». لقد بقي له هذا الجيش. التفريط به يعني الموت. وفي «الشارع المسيحي» ليس من عاقل يصدّق أن فارس سعيد حالة شعبية، أو أن ميشال معوض يلقى آذاناً صاغية في زغرتا. الرجل (ربما) منفصل عن الزغرتاويين، حتى عمّا بقي من إرث والده، أو والدته، على الأرجح، كما يقول متابعون. أحد الزغرتاويين، يؤكد أن الأجواء في المدينة المارونيّة تراقب «الصعود السلفي» في طرابلس باهتمام شديد. والبعض هناك يبالغ في تقدير الخطر، فيستحضر السيناريو العراقي، وحملات التهجير، وإن كان السكان مؤمنين بأنّ عاصمة الشمال لن تسقط في فخ التطرف: «شويّة زعران وبيخلصوا. الطرابلسيون أهلنا وحبايبنا». وهذا أمل أكثر من كونه خطاباً. بيد أن في الأشرفيّة الحسابات أكبر. «مدينة بشير لا يمكن أن تكون مع الأسير»، تقول قواتيّة حتى النخاع. برأيها: «الحكيم يناور». هذه القواتيّة الفريدة، التي تتمنى أن يحدث تحالف «عجيب» بين حزب الله والقوات، والتيار الوطني الحر أيضاً. للوهلة الأولى، يبدو ظهور مثل هذه الآراء، من هؤلاء الشبان، محاولة أخيرة لتفادي الحرب. والحرب لا يمكن تفاديها بالآراء المعلنة في الحانات. ربما كان، على حزب «الكتائب» مثلاً، أن ينصت أكثر إلى قواعده، وإلى «مصلحة الطلاب» في الحزب مثلاً، التي كانت من أول الداعمين أول من أمس للجيش، قبل أن يخرج النائب سامي الجميّل ويعلن تأييده للجيش. على سبيل النكتة، يقول كتائبي على «تويتر»: «المسيحيي خايفين يا خيي». وهي ليست مضحكة إطلاقاً. هذا كلام بمنتهى القسوة، ولكنه صار متداولاً.

قد يحسب هذا كله طائفياً. وقد يقال إن هذه قراءة أقلويّة لمجتمع بالغ التنوع. ولكن مهلاً. لبنان ليس بلداً إسكندنافيّاً. إنه في منتصف هذا السعار المذهبي الذي ينفلش كبقعة زيت. وفي 1975 اندلعت الحرب لأن الناس لم يفهموا معنى المجتمع. وإذا تكومت الجثث فوق بعضها لا يعود رشق النواب بالبندورة، عملاً كافياً. فهم المجتمع أولى، إذ إن النواب على صورة المجتمع. هذا إن كانت هناك أي نيّة، لتجنيبه السيارات المفخخة. ربما وجب الإنصات إلى « القواعد» قبل أن تنفجر. وقبل إلقاء اللوم على «جماعة» يحاول «الأسير» أن يسطو عليها، أو يتحدث باسمها، وقبل «تكفير» جماعة أخرى، على الجميع أن يفكر طويلاً، ماذا يمكن أن يقال لأمهات جنود الجيش، وهنّ يرسلن عيونهنّ الصامتة مع تلك التوابيت الطريّة إلى أبديّة مبكرة.

طريق صيدا مقطوعة: بحر صور يجمعنا

حسن شقراني

تلتقط الأذن حديثاً صاخباً بين شبّان عشرينيّين. أحدهم يجزم بوجود «قرار على أعلى المستويات» يقضي بأن طريق الجنوب ـ بيروت لن تقطع مهما كلف الأمر. المعلومات الوافدة إليهم على الهواتف الخلوية، وعبر الاتصالات المباشرة مع الأهل والأصدقاء، تُنبئهم بأن هذا الأحد سيكون واحداً من الأيام التي تزايدت خلال العامين الماضيين: صيدا مشتعلة، والطرقات المؤدية إلى بيروت في النقاط الساخنة ستكون مقطوعة . الأخبار العاجلة المقلقة تزداد. معلومات عن استشهاد ضباط وجنود في الجيش برصاص مسلحين تابعين للشيخ أحمد الأسير. يزداد التوتر. يشرع البعض بحسابات حول كيفية العودة إلى العاصمة بعد نهار ممتع على أحد أكثر الشواطئ إغراءً على الساحل اللبناني. إحدى الفتيات كانت قد طمأنت والدتها بأن عطلتها ستكون عند شاطئ جبيل. «مرّرت عليها كذبة بيضاء كي لا تقلق؛ هي تعرف أننا نحبّ المجيء إلى صور، غير أنّها تنبّهنا دوماً الى أنّ الاضطرابات في صيدا قد تحبسنا جنوباً». تصاعد قلقها في سياق درامي مع توالي الأخبار عن شهداء للجيش . في البدء، كانت مطمئنة على قاعدة أن أحداثاً كهذه تتوالى منذ عامين، وسرعان ما تنتهي. لكن عندما تعي خطورة المعطيات فعلاً، تبدأ تلك الضحكات الممزوجة بالنكتة السوداء: أوصيكم يا من ستبقون على الشاطئ اليوم بأن تذكروني بالخير وبأن تتمتعوا بهذا البحر من بعدي.

زجاجات الجعة تحت الشمس تغري جميع الموجودين. صديق الفتاة حضر إلى الشاطئ من دون أيّ تصوّر مسبق بأن هذا الأحد المشمس قد يتحول إلى أسود. طائرته إلى أحد بلدان أفريقيا تنطلق من بيروت عند منتصف الليل . يرتبك، يشتم الأسير. غير أنّه سرعان ما يعود إلى حالة الاستجمام، موحياً بأن البقاء في لبنان يلائمه أيضاً.

على هذا الشاطئ سياح داخليّون من كل المناطق. ميشال، ابن بلدة الفرزل، والمتأهل بسيدة جنوبية، يستغرب عدم اتصال والده المولع بالحفيد وبسلامته، في هذه الأوقات الصعبة. «لعلّه يتمتع بوليمة يوم الأحد ولم يتنبه إلى هذه التطورات». ولكن سرعان ما يتّصل الجدّ القلق. يطلب من ابنه البقاء مع عائلته في الطرف الآخر من البلاد.

يخرج بعض الموجودين على تلك البقعة السياحية من التحليل المباشر للأحداث. يتحدثون عن أبعادها. «إذا كان الوطن ستتقطع أوصاله فعلاً، فلنبق في هذا الجزء من البلاد لنحافظ على نمط الحياة هذا الذي نعيشه»، يقول طبيب حضر مع زوجته وابنه لتمضية فترة بعد الظهر. فعلاً، لا تبدو البلاد في هذه اللحظات صديقة لوجود المواطنين في مناطقهم، فكيف إذا ساحوا داخلياً. يستمرّ عدد الوافدين السياح إلى لبنان _ أكانوا أجانب أم لبنانيين بجوازات سفر أجنبية _ بالتراجع. حتّى أيار الماضي، بلغ عددهم 487 ألفاً، بانخفاض نسبته 12,5% عن العام السابق .

الهواتف لا تهدأ، اتصالات وخدمات الأخبار العاجلة. لا تتحرك الشفاه لإطلاق جملة واحدة من دون شتيمة أحمد الأسير ومسلحيه. أحدهم يوضّب الأغراض ثم يُفرغها لمعرفته أنّ رحلته ستكون معرقلة جداً . «البقاء هنا أرحم من محاولة تجاوز صيدا؛ سننتهي من هناك، ولكن ماذا نفعل عندما نصل إلى منطقة الناعمة والمناطق الأخرى التي شهدت قطع طرقات؟».

> إذا كان الوطن ستتقطع أوصاله فلنبق في هذا الجزء من البلاد

وبالفعل، نقل العديد من وكالات الأخبار أن عدداً من الأشخاص تعرّضوا للاعتداءات والضرب من قاطعي الطرق في منطقة الناعمة. من قرّروا عند مداخل صيدا الالتفاف والعودة جنوباً مع بدء المواجهات، اعتمدوا الخيار الصائب. لتقطع أوصال الوطن، بالشكل الذي فرضه المسلحون يوم الأحد، تداعيات ليست أمنية وحسب، بل اقتصادية أيضاً. أخيراً، أكّد رئيس نقابة أصحاب مؤسسات السياحة والسفر، جان عبود، في حديث إلى «الأخبار »، أن الحجوزات إلى لبنان هي عند أعلى مستوياتها، وأن معظم القادمين هذا الصيف هم المغتربون اللبنانيون. ولكن العديد من هؤلاء لم يُحققوا حجوزاتهم حتى الآن . وبالتالي هي عرضة للإلغاء على وقع أصوات الرصاص التي يسمعونها عبر الفضائيات التي تبث مباشرة من البؤر المتوترة.

يبعث أحد الأصدقاء المستقرين في الخليج رسالة عبر «الفايسبوك»: «كيف الأوضاع؟ هل أبقي الحجز أم ألغيه؟». في تلك المنطقة، هناك ما يكفي من مباعث القلق بعد تهديد عدد من سلطات البلدان النفطية بأنّ مغتربي لبنان معرضون للطرد. تحاول طمأنته وفي بالك بأنّ موقعة صيدا قد تتحول إلى مواقع.

ن الشر

هجّروا من نهر البارد مسبقاً و«لا نريد تكرار ذلك مجدداً».

كما في شاتيلا، كذلك في مخيم برج البراجنة، الشوارع هادئة، رغم ارتفاع أصوات التلفزيونات. بالقرب من مستشفى حيفا، تجلس إحدى المسنّات في المخيم أمام باب منزلها. تتأمل وجوه المارة. النسوة في سوق الخضر لا يعنيهنّ ما يجري في صيدا. عند سؤال إحداهن عن رأيها بما يجري، تجيب: «الله يهدّي البال». أما أصحاب الرؤوس الحامية من شباب المخيم، فهؤلاء في دنيا أخرى، غير دنيا الشيخ الأسير. فهم ليسوا ملتزمين دينياً ولا يعنيهم ما يجري في صيدا، الأهم بالنسبة إليهم هو «إيجاد شغل»، كما يقول توفيق الكايد. الشاب الثلاثيني غير مهتم بالأسير وأعوانه. ببساطة «الجيش اللبناني بينعلقش معو». هذه النظرية ليست من باب الإعجاب بالجيش، بل لأن «التجارب أثبتت ذلك». من جهته، يقول أحد المسؤولين الأمنيين في مخيم البرج إنه جرى تفعيل اللجان الأمنية في المخيم بعد الأحداث التي شهدها لبنان أخيراً. إذ شاركت فصائل منظمة التحرير وتحالف القوى الفلسطينية في إمداد هذه اللجان بالعديد والسلاح.

زائر مخيمي البرج وشاتيلا يخرج باستنتاج يفيد بأن أهل المخيمين يفضّلون «النأي بالنفس»، وحتى أمس، استطاعوا الى ذلك سبيلا.